جاءت المصائب فلا خيرَ من توسيع الصدر وقبولها بالصبر كما قيل

اذا غلبتْ على الافراح يومًا همومٌ في الفؤاد لها سعيرُ
تصبَّرْ وانتظر فرجًا قريبًا تجدهُ لوفدهِ في الوجهِ نورُ

لما حُكم على ابكتوتس الفيلسوف بالنفي من رومية قال قد حكم عليَّ بالنفي ولكن من يستطيع ان ينفي الفرح والرضى من قلبي وان القوا جسمي في السجن فلا هم ولا زفس نفسهُ يقدرون ان يسجنوا عقلي . وكان ابكتوتس هذا عبدًا ولكنهُ قاد الاحرار في سبيل الحكمة والفضيلة ومما قالهُ في هذا المعنى " كيف يفرح من لا لباس لهُ ولا بيت ولا خادم ولا وطن . فانظر ان الله ارسل لك من يريك امكان ذلك فهانذا لا وطن لي ولا بيت ولا مقتنى ولا خادم ولا زوجة ولا اولاد افترش التراب والتحف السماء وماذا يعوزني . الستُ خاليًا من الهمّ الستُ خاليًا من الخوف الستُ حرًّا . من منكم رآني اعجز عن بلوغ امالي او اقع في ما احاذر منهُ . هل شكوتُ من الله او من انسان وهل علّت الكآبة وجهي أو ترضّيت وجه مخلوق ممن تخافون وتكرمون أو لم اعاملهم كلهم كأنهم عبيد لي . ومن ينظر اليَّ ولا يحسب انهُ ينظر الى ملكهِ وسيدهِ "

اما النعم المحيطة بالانسان فكثيرة وقد لا يعتبر قيمتها لاعتيادهِ عليها او قد ينكرها لشدة طمعهِ وكبر نفسهِ

واذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الاجسامُ

واما التنوع الذي ربّى نفسهُ على الرضى والسرور فيرى البهجة والحبور في نور الشمس وضياء القمر وتلألؤ الكواكب وترقرق الماء وحفيف الاشجار وتغريد الطيور وهبوب النسيم وخضرة المروج ويرى الطبيعة كلها متبسمة تكاد ترقص طربًا . فاذا اردت ان تعيش العيش الرغد ناعم البال فاطرد الهمّ من قلبك والكآبة عن نفسك وانظر الى نعم الله التي لا تحصى

اقزامُ الاوائل والاواخر

لم يبرح من بال قرّاء المقتطف في العاصمة والاسكندرية امر القزمين العجيبين اللذين زارا القطر المصري في الشتاء الماضي ولا ما اشار اليهِ ستنلي الرحّالة الافريقي الشهير من امر الاقزام الذين رآهم في قلب افريقية . ولا بدَّ من ان كثيرين تساءلوا

عمّا يُعلَم من امر الاقزام وعن صحة ما روي عنهم في خرافات الاولين وتواريخهم ولذلك افردنا هذه المقالة لهذا الموضوع فنقول

زعم المتقدمون ان في الناس جيلاً قصير القامة جدًّا وان الجمع كانت تهاجمه وتلتحن فيه والى ذلك اشار هوميروس الشاعر اليوناني في الكتاب الثالث من الالياد حيث قال ما ترجمته

اذا ما الثلجُ غطّى وجه ارضٍ وجاءت ديمةٌ من بعد اخرى
مضى الجَمعُ المقيم الى بحارٍ يرى فيها بديل البَرْد حرًّا
وقاتل من اهاليها قزامى وعوّضهم عن الغبراء قَبْرا

واشار كثيرون من الكتّاب القدماء الى حروب الاقزام والجمع وصوروهم على الكؤوس وهم يحاربونها . اما ارسطو وهيرودوتس وبليذوس وكتسياس وغيرهم فذكروا الاقزام ذكرًا خاليًا من المبالغات الشعرية وقال ارسطو انهم يسكنون افريقية قرب مصادر النيل وقال كتسياس انهم في قلب بلاد الهند واثبت هيرودوتس ما اشار اليه ارسطو وهذا كلامه بالحرف الواحد

"لقد سمعتُ من بعض اهالي سيرينى ما سأقصه الآن وهو انه حدث مرةً انهم انوا لزيارة هيكل امون ودار الحديث مع اتيرخس الملك الاموني على النيل وكيف لم تزل مصادرهُ مجهولة فذكر اتيرخس ان نفرًا من النسامونيين جاءوا بلاطه مرةً ولما سُئلوا عن غير المعمور من ليبيا قالوا ان النسامونيين شعب ليبي يسكن السرتس وهي بلاد غير واسعة الى جهة المشرق . وانهُ ربي بينهم رجال وحشيون وهم اولاد بعض الرؤساء فلما بلغوا مبلغ الرجال افرطوا في امور كثيرة وفي جملة ما فعلوهُ انهم اقترعوا على خمسة منهم ليذهبوا ويرودوا قفار ليبية ويحاولوا الايغال فيها الى حيث لم يبلغ احد قبلهم فذهبوا لهذا الغرض ومعهم كثير من الماء والزاد وقطعوا المعمور اولاً ثم دخلوا القفار واوغلوا فيها من الشرق الى الغرب . وبعد ان ساروا في الصحراء اياماً كثيرة وصلوا الى سهل فيه اشجار يانعة فدنوا منها وجعلوا يقطفون من ثمرها واذا برجال اقزام قد وقعوا عليهم واخذوهم اسرى ولم يستطع النسامونيون ان يفهموا كلمة من لسانهم ولا هم من لسان النسامونيين . وبعد ان ساروا بهم في مروج فسيحة وصلوا الى مدينة سكانها كلهم من الاقزام وهم زنوج في الوانهم وبجانب المدينة نهر عظيم يجري من الغرب الى الشرق وفيه تماسيح" انتهى

وقد ارتاب العلماء اولاً في صحة رواية هيرودوتس وزعموا انهُ اراد بهؤلاء الاقزام طوائف الفرود اما الآن وقد ثبت وجود الاقزام في قلب افريقية فلم يبقَ محل للريب في رواية هيرودوتس

وقد بحث ده كاترفاج العلّامة الفرنسوي في هذا الموضوع بحثًا دقيقًا ونظر في كل ما يروى عن اقزام افريقية واقزام الهند واستنتج من ذلك ان الكتّاب الاقدمين اشاروا في ما ذكروهُ الى اقوام موجودين حقيقةً ولم يزالوا موجودين الى يومنا هذا فعنوا باقزام افريقية الاقزام الّذين اشرنا اليهم هنا وباقزام الهند جيلاً من الناس يسكن جزائر اندمان وهي في خليج بنغالا بين الدرجة العاشرة والرابعة عشرة من العرض الشمالي وفي طول ٩٣ درجة شرقيّ غرينج . ومع قرب هذه الجزائر من بلاد الهند ووقوعها في طريق السفن الذاهبة الى الهند الاقصى ومع ارتياد الاوربيين كلّ خضراء وغبراء وتطلّبهم المكاسب من كل جزيرة من جزائر المحيط لم يهتموا بامر هذه الجزائر حتى سنة ١٨٥٨ وما ذلك الاّ لما كانوا يجدونهُ من الشراسة في اخلاق اهاليها ولعلّ سبب شراسة الاهالي ونفورهم من الاغراب حادث عمّا كانوا يلاقونهُ من الصينيين والملقيين الّذين كانوا يصطادونهم صيد الوحوش ليستعبدوهم

ولما اخمد الانكليز ثورة الهنود سنة ١٨٥٨ وقبضوا على المذنبين لينفوهم الى بلاد اخرى استولوا على هذه الجزائر وتنوهم اليها وللحال اخذ احد العلماء وهو ادورد مان في البحث عن اخلاق الاهالي وطبائعهم وعوائدهم وصنائعهم وتقاليدهم ولغتهم وألّف كتابًا مسهبًا في ذلك اصلح فيهِ خطأ الّذين سبقوهُ من مؤلفي العرب والافرنج

ويستفاد من كتابهِ ان اهالي هذه الجزائر تسع قبائل مختلفة يرجعون كلهم الى اصل واحد وقد قاس طول ٤٨ رجلاً و ٤١ امرأةً منهم فوجد متوسط طول الرجل اربع اقدام وعشر عقد وثلاثة ارباع العقدة ومتوسط طول المرأة اربع اقدام وتسع عقد وربع عقدة . وشعرهم كث مفلفل ولونهم اسود ورؤوسهم مستديرة واسنانهم كبيرة وبروز فكهم غير كثير وهيئة الزنوج الخاصّة غير ظاهرة فيهم تمام الظهور ولكنّ تركيب ابدانهم مثل تركيب ابدان الزنوج في نسبة عظامهم بعضها الى بعض . وكانوا يسكنون خصاصًا مبنيّة من اغصان الاشجار واوراقها ولم يكونوا يعرفون شيئًا من امر الفلاحة ولا كان عندهم شيء من الماشية . وآنيتهم كلها من الخزف يعملونها بايديهم بدون دولاب ويجففونها بالشمس او يشوونها قليلاً بالنار ولا يستعملون جلود الحيوانات وعندهم قوارب صغيرة يصنعونها

من الاشجار المتهورة . وهم ماهرون في السباحة والغوص ويستعملون النار ولكنهم لا يعرفون كيفيَّة ايرائها فيحافظون عليها لكي لا تنطفئ . ولا يعرفون شيئًا من امر المعادن فيستعيضون عنها بالاصداف والصوان ويصنعون من الياف الاشجار خيوطًا وسلالاً وشباكًا وسلاحهم القوس والسهم وليس عندهم تروس ولا دروع ولا شيء من ادوات الدفاع . والارض خصبة تكثر فيها البقول والاثمار والجذور ويكثر الخنزير وغيره من الحيوانات الصغيرة فيجدون فيها وفي البحار كفافهم من الطعام . ويطبخون طعامهم ويأكلونه سخنًا . وقبل دخول الاوربيين بلادهم لم يكونوا يشربون الاَّ الماء القراح . اما الآن فتعلقوا على المسكرات والرجل منهم يتزوج بامرأة واحدة يعيش معها حتى الممات ويكرمها غاية الاكرام ولا يعرفون اكل البشر ولا قتل الاطفال

وقد ظهر للمسيو ده كاترفاج بعد البحث الطويل ان هذا الشعب كان منتشرًا في الهند نفسها وعنده ان سكان الهند الاصليين هم من هذا الشعب وقد انقرضوا من امام الجنس الآري ولم يبقَ منهم الاَّ النزر القليل كما انقرضوا من بعض الجزائر او امتزجوا بالجنس الملقي والمغولي وذلك يوافق من اكثر الوجوه ما ذهب اليه ونشل العالم الاميركي . وفي راي المسيو ده كاترفاج ان هؤلاء الاقوام هم اقزام اسيا الذين ذكرهم كتسياس وبليتيوس وغيرهما من الاقدمين

اما اقزام افريقية الذين ذكرهم هوميروس وهيرودوتس وارسطو فاول من اشار اليهم من المتأخرين اندروبتل الذي اسرهُ البرتغاليون وارسلوهُ الى قلب افريقية فاقام فيها ثماني عشرة سنة من سنة ١٥٨٦ الى سنة ١٦٠٤ للميلاد . فقد قال انهُ رأى فيها جيلاً من الناس لا يزيد طول الواحد منهم عن طول ولد عمرهُ اثنتا عشرة سنة ثم ذكر هذا الجيل كثيرون من الذين رادوا افريقية الى يومنا هذا وآخر من رآهُ ووصفهُ ولنولو وقع عظيم عند العلماء الدكتور شوينفرث وميانى وامين باشا . اما الدكتور شوينفرث فاوغل في قلب افريقية سنة ١٨٧٠ وبلغ بلاد ملك منبتّو ورأى هؤلاء الاقزام في بلاطهِ وبلادهم الى الجنوب الغربي من بلادهِ حيث العرض ٢° شمالاً والطول ٢٥° شرقًا وهم داخلون في حماهُ ومعيشتهم من الصيد واسلحتهم القسي والسهام فاخذ واحدًا منهم عازمًا ان يأتي بهِ الى اوربا فمات في بربر . وحُرقت جميع اوراق شوينفرث فما كتبهُ عنهم بعدئذٍ اعتمد فيهِ على ذاكرتهِ

اما ميانى فاقتفى خطوات شوينفرث الى بلاد المنبتّو والى منها باثنين من هؤلاء

الاقزام ومات في اثناء الطريق كما هو معلوم ووصل الزمان الى ايطاليا وعُرضا على الملك والملكة ثم اعطيا للكونت منسكني فعاشا في بيته ومات احدهما سنة ١٨٨٣

اما امين باشا فدخل بلاد المنبتو ورأى الاقزام فيها واخذ واحدًا منهم ووصفهم وصفًا مدققًا وارسل هيكلين من عظامهم الى بلاد الانكليز وهما هيكل رجل وهيكل امرأة ففحصهما الاستاذ فلوَر وقاسهما بالتدقيق فوجد طول هيكل المرأة اربع اقدام تمامًا وطول هيكل الرجل اربع اقدام الاَّ ربع عقدة فاذا اضيف اليهما ثخن جلد الراس وجلد القدم كان طول الرجل اربع اقدام وربع عقدة وطول المرأة اربع اقدام ونصف عقدة ويظهر من عظامهما انهما متناسبة تناسبها في بقية الناس الكاملين الخلق فهي ليست مثل عظام الاقزام الذي فَرَزهم عن نشوه خلقي او صناعي ولذلك فهؤلاء الناس قصار القامة صغار الجسم طبعًا

وخلاصة ما ذكرهُ الاستاذ ده كاترفاج والاستاذ فلوَر والسيَّاح الذين طافوا افريقية ان فيها قبائل على خط الاستواء منتشرين من غربيها الى شرقيها وهم صغار الجسم قصار القامة متوسط طولهم نحو اربع اقدام فقط وفي قياس امين باشا اقل من ذلك. ومن المظنون ان هؤلاء الاقوام سكنوا افريقية قبل غيرهم ثم جاء الزنوج اليها ففروا من وجوههم الى ان انحصروا في قلب افريقية ولم تزل شرذمات منهم في جهات مختلفة ولا يبعد انهم هم الاقزام الذي اشار اليهم هيرودونس وانهم هم واقزام المشرق من اصل واحد وان منهم اكثر الاقزام الذين كان الملوك والعظماء يباهون بهم

وقد اخبرنا احد رجال امين باشا الذين جاءوا مع ستنلي انه رأى هؤلاء الاقزام في الاسر وحادثهم فوجد انهم يُربَّون كما يربَّى الضان ويسمَّون غنم الرؤساء ويتظلم اسيادهم ويأكلونهم فاذا استسمنوا واحدًا منهم وارادوا اكله ضربوا عنقهُ بسكين اعتقد بقطع النخاع المستطيل فيخر لساعته قتيلاً فيمطونهُ بالماء الغالي الى ان تزول بشرته السوداء وبياض جلده ثم يطبخونهُ ويأكلونهُ . ومن غريب امرهم انهم يعلمون بما سيأول اليهِ حالهم وهم راضون بمعيشتهم بربون ويتوالدون في بيوت اسيادهم ويفعلون ما يؤمرون بهِ كأنَّ وجودهم انما هو لارضاء اسيادهم . وهم في بلادهم يصطادون الناس ويأكلون لحمهم على ما ذكرهُ ستنلي وما ظالم الاَّ ويلى باظلم